

نظرة في علم البيان

على جوانب الاحكام البيانية فمرنان يجب ردمها
ارجاع قوالب الكلام البليغ الى اجناس قليلة

لادوار مرقص

من اعضاء المجمع العلمي العربي

كل من درس علم البيان العربي بفنونه الثلاثة المعاني والبيان والبديع وتأمل ملياً احكام هذه الفنون في كتبها القديمة والحديثة راقاً ما هناك من دقة وحسن تبويب وتفصيل وأدهش ما يقف عليه من النثر والشراهد النفيسة التي تعد بالآلاف وأكبر همه أو لك الأسلاف الكرام من علماءنا وما أبدوه من فطنة شامعة وخبرة واسعة ان علماءنا القدماء في آداب لساننا العربي أدوا في هذا السبيل الجليل ما كان مأمولاً منهم ومنتظراً . بل زادونا في الفرعيات أشياء طيبة جاوزت حد ما أملنا وانتظرناه . وليس معنى ذلك انهم بلغوا الكمال في ما تخرجوه فالكمال لكل علم وفن وصناعة لا يرجى بلوغه او مجاورته عن يد فئة واحدة من العلماء لمصر أو عشرين بل يتم ذلك رويداً رويداً على أكتاف متطاولة . ومن ثم لم يكن بد من وجود مواضع استدراك في علم البيان عندنا . والذي أدرى اليه في مقالنا الحاضر الاشارة الى موضعين : الموضع الاول التداخل في مباحث علم البيان . والموضع الثاني اقتصار الاحكام البيانية عندنا على جزئيات حسن الاداء والانشاء ضاربة صفحاً عن كتاباته . ويضاف الى موضوعي التقدير هذين مطلب جديد استخرجته بطول الملاحظة والاستقراء ويقوم بإرجاع القسم الاكبر من محسنات الكلام وطرق البلاغة الى ثلاثة أركان هذه هي المواضع التي يجدر بالتأخرين ان يشتبهوا اليها ويعملوا بموجبها لا ان يكتفوا باجتنابها قرائح من سبقوهم ثم يحمداً جهوداً شيئاً يخالف على خط مسبقهم نشاط الحركة والدوران لما يكتشفهم من مكان وزمان وأحوال

التداخل في مباحث علم البيان

هذا التداخل أشرت اليه في كتابي «كتيب البيان والشعر» الذي طبعته سنة ١٩٣٤ حيث قلت : ان في كتب علم البيان عندنا اي فنونه المعاني والبيان والبديع تداخلاً ليس له وجهه

صديد بل هو مدعاة تشويش واعتات للذهن ولعل علماءنا يقتضون إلى معالجته فزيروا مواضعه أو ينهروا إليها الدارس ويجعلوه على بصيرة من أمره . فن مواقع التداخل نوع البسط والإشباع في البديع فليس إلا من باب الاطناب في المعاني . ومثل ذلك الاحتباس والإيفال والتمعيم فهي من الاطناب أيضاً . وقد ذكرت في المعاني والبديع والقلب في باب مخالفة مقتضى الظاهر من أبواب المعاني وهو نفس التشبيه المقلوب في البديع . والاستعارة التهكمية في باب المجاز العرذ من فن البيان مذكورة أيضاً في باب المجاز المرسل من هذا الفن لأنها هي نفسها التي قوامها تشبيه الشيء باسم ضده ومذكورة في البديع باسم التهكم . ثم إن المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه هي أجناس كثيرة الفروع تستغرق فن البيان بجملة وتفصيله . وقد وقاها هذا الفن حقها من التقسيم والتشليل فما معنى إعادتها باسمائها في فن البديع باعتبارها أنوعاً بديعية كغيرها من تلك الجزئيات مع أنها أجل شأنًا من ذلك بكثير فهي مصدر وأساس قسم كبير من الأنواع البديعية

اقتصار الأحكام البيانية على جزئيات حسن الاداء

إن في هذا الاقتصار لتقصيراً غريباً . ولكنه لأول ظهوره لم يكن على شيء من الغرابة إذ كان ثم أئمة الأدب العربي مصروفًا إلى اظهار الإعجاز والمعاني الدقيقة في القرآن الكريم دالين المتأدين على ما هنالك من الجزئيات والمعاني المكتسبة في تقديم وتأخير . أو حصر وإغلاق . أو ذكر وحذف . أو إطناب وإيجاز . أو وصل وفصل . مع الأغراض التي يمكن تحصيلها على طريق التنداء والاستفهام والامر والنهي . وقد أضافوا إلى ذلك تفصيل وجوه التشبيه والاستعارة والكناية والمحسنات الناشئة عن ترتيب أو ادماج أو تورية أو مشاكسة أو طباق أو منازعة أو مراعاة نظير إلى آخر ما هو مدوّن في كتب المعاني والبيان والبديع . فإذا وقف عليها الدارس فطن لمحاسنها وللأغراض الثانوية التي تحتها في القرآن وفي غير القرآن من كلام الفصحاء والبلاماء . هذه هي الغاية الكبرى التي قصدها أئمة علم البيان عندنا ووضعوا أساسه وقد قدموا بقسطهم ذلك خير قيام

أما وقد تكون شيئًا فشيئًا من مدوناتهم الدقيقة تلك علم عظيم سميته علم البلاغة فأصبح من الواجب على المتأخرين أن يوسعوا نطاقه ويسندوا ما نالوه لأجل تعميم فهمه للطلاب وإيصال أثر أحكامه إلى حاجات المنشئين في كل النواحي . وإنما يكون ذلك بتفريج أبواب تلك الجزئيات بالمطالب الكلية التي تشرف عليها جميعاً مع اظهار شروط ووجوه كل من تلك الكليات لتتضح القرون يلها فلا يلتبس بعضها ببعض . فإذا وقف الدارس عليها ثم نظر في تلك الأحكام الجزئية الدقيقة التي تناوضا بلقاء كتبنا البيانية كان عامة ناضجاً

وملاحة ماضياً في خوض ميدان البلاغة نظماً ونثراً

إن الأحكام الكتابية التي أحض على بسطها وإيضاحها في كتب البيان هي ذكر ما لكل موضوع من الكلام من أسباب الحسن وشروطه والملاحظات والأرشادات العديدة كان يورد المصنف هذه الأمور المجمعاً لما يجب مراعاته في باب المراسلات الودية . وفي باب المدح والتهاني والتعازي والاعتذار والعتاب والتصل والتوصية ومخاطبة الرؤساء والمؤوسين وفي تدبيح المقالات والمناظرات والمحاضرات على اختلاف أغراضها . فإن أراد القوائد المتعلقة بكل باب من هذه الأبواب زاه متبعاً في كتب بيان الأفرنج . ولا أنكر أننا نرى من ذلك شذرات متفرقة وإشارات خفيفة في تصانيف كتب الأدب . ولكنة نصيب ضعيف لا يد ثمة ولا يشي غلباً . وأما المطلوب إيراد تلك القوائد والأرشادات منسجمة تنظيمياً حسناً مع إيضاح وإشباع في أبواب متجاورة ثم اتباعها بما نمودنا أن نقف عليه في كتب بيانتنا من أحكام الحذف والذكر والتعريف والتكثير والاضمار والافتقار ونحو ذلك ومن أنواع انقشبه والاستعارة والتكناية وتلك المحسنات البديعة

وأما أن نكتفي بهذه الجزئيات دون تلك الكليات فيجمل مثلنا مثل رجل دخل داراً فسبعة العرصات كثيرة المخادع والدهاليز والمستشرقات وكان يريد استخدام تلك الدار وسكنها مع أفراد أسرته والتمتع والانتفاع بها متوخياً من ورأئها رغد الديش وراحته . فأعرض عن النظر في أقسام الدار وتخصيص كل قسم بما يليق به بحيث تتميز غرف النامة عن غرف الضيافة وتتميز هذه عن غرف الطبخ وتناول الطعام والاستحمام . أعرض عن النظر في ما ذكر وفي غيره من كيفية استخدام المسكن على أحسن الوجوه ولم يلتفت إلى الموازين والانات التي تصلح لهذه الغرفة دون تلك . ولهذا البهو دون ذلك . أهمل الرجل هذه الكليات الجوهرية وحصر عنايته واهتمامه بفحص الجيد والودي من هذا القماش وهذه المقاعد الخشبية وهذه الأدوات النحاسية والزجاجية وتلك الصحن والقدر وما شا كل ذلك . والرأي البديد يقضي عليه بأن يعرف هذه التفاصيل ولا يمرض عن شيء من مقتضيات تلك العموميات الشاملة . وهكذا يجب أن يكون علم البيان وهو علم البلاغة

أرجاع طرق البلاغة إلى ثلاثة أركان

فرغت من ذكر الثغرتين اللتين يجب ردمهما في كتب البيان عندنا وما التداخل في مباحث علم البيان . واقتصر الأحكام البيانية على جزئيات حسن الأداء . وبقي علي أن أورد المطلب الثالث الذي أشرت إليه في صدر هذا المقال

واعني وحرزاً في صدري سنين طويلة ما رأيته من كثرة الاسماء لقوالب الكلام المبلغ

المنصوص عليها في علم البيان ولا سيما أسماء الشخصات المعنوية واللفظية في فن البديع . ومع
إني أحد الأفراد القلائل الذين حفظوا تلك الأسماء وتبينوا مسمياتها ووقفوا على تعريفاتها
وشواهدها ومثلها كنت أحس من نفسي أنه لا يزال يفوتني شيء غير يسير مما ذكر وكذا
عنتت بحفظ هذا الجانب لست جانباً آخر يعادله أو يقارنه . هذا الذي جرى لي ولم أتم
نفسي لأجله بقصور ولا تقصير إذ علمت علم اليقين أن معظم المشتغلين باللغة العربية هم من
هذا القبيل على مستوي أو دون مستوي . ولنا بذلك ملء العذر فن الذي تسمح له غنمه
وأوقاته مما بأن يستوعب هذه الناحية الصغيرة من آداب لغتنا فيحفظ نحو مئتي اسم اثنين
من الأنواع والأرباب مع تعريفاتها وشواهدنا ومثلها وفوارق المتشابهات منها . والتقدم
الأكبر من هذا الغناء الطويل العريض ليس تحته طائل كبير وما أشبه هذه المحفوظات
بالجنوب البرتي تتناول منه عشر أقات فلا نستخرج منها إلا عشرين درهم دبس . صدقوني
إن غناء هذه المحفوظات يعادل أو يجاوز غناء درس واثنان على النبات والحيوان معاً على ما فيها
من أسماء الأجناس والأنواع والخصائص . فهل من الحق والصواب أن يضحي بهذا المبلغ من
الجهد والزمان لأجل تلك الناحية الثانوية من آداب لساننا العربي . وإن رضينا بهذه التضيعة
فأية بقية نذكرها لئلا نواحي الأدب الجوهرية كفن اللغة وتاريخ العلماء والأدباء ومعضلات
الصرف والنحو وغير ذلك

فكرت ملياً في هذا المأزق الذي فيه ما فيه من دواعي الحسرة واعتات الذهن ثم قلت
في نفسي أن القوم قصروا من الزمان قرنين أو ثلاثة قرون وهم يتنافسون في استخراج أكثر
ما يمكنهم من تلك القرباب للكلام البليغ واعطاء كل قالب اسماً حتى أوصدوا إلينا ما نحن
فيه . أفلا يمكننا ياترى مع اعترافتنا بفضلهم في الحق واعترافتنا من بحر فرائد ما نحن
على ما يخالفهم . وبعبارة أوضح أن نخالف طريقةهم وإن شاركناهم وحرصنا مثلهم على
الغاية المقصودة من غناء السير وهي الإفادة واكتساب ما يهيك البلاغة . ألا يجوز أن نخالف
طريقهم وذلك بأن نحمل ما فصلوه ونعطي ما خصصوه لأجل تمهيد السبيل وتقريب الشئ على
الوازددين . ألا يمكننا أن نوزع هذه الأنواع أو معظمها أو أثنائها شأننا وأطوبها أترأ على
بضعة أجناس ننسوي اليها ونطوي تحتها . جعلت هذه الهدف نصب عيني وأعلمت النظر
على مهل في قوالب الغناء فأريت القسم الأكبر منها يمكن إرجاعه إلى ثلاثة أركان هي :

الموافقة والمخالفة وحسن الترتيب

فن الموافقة ينشأ التشبيه والاستعارة والكناية ومراعاة النظير وإيهام التماثل
والاشتراك والجنسية والاشاكلة والتدريج والاستعارة والجناس التوليدي والموازنة ولزوم

ما لا يلزم والنصدير والتضمين والأبهام والتوجيه وغير ذلك
وعن مخالفة ينشأ الطباق وإيهام التضاد والمقابلة والمقابلة والقول بالموجب والاستدراك
والاستثناء وعكس الجمل وما لا يستحيل بالانعكاس وتأكيدهما يشبه الدم وتأكيدهما
بما يشبه الدم والتعريق والراجعة والجد في معرض الهزل وغيرها

وعن حسن الترتيب ينشأ الجمع والتقسيم والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتفريق
والطي والنشر والزوجة والاطراد والتوسيع وتناسق الصفات والادماج والاستتباع وأقسامها
وهذه القوالب التي ذكرناها تستغرق من فن البيان وفن البديع ثلاثة أرباعها على وجه
التقريب . وأما فن المعاني فبدخل معها من سباحة القوالب المنصوص عليها في باب مخالفة
مقتضى الظاهر وهو آخر أبوابه . وأما سائر محتويات المعاني فمعظمها يحسب تنعة ذكية
لكثير من مباحث علم النحو فهو بنجوة عن ميدان البيان والبديع

والمقام الحاضر لا يسمح لي بإيراد الكثير من الأمثلة والشواهد على صحة ما رخصت من
إرجاع قوالب الكلام البليغ إلى الأركان الثلاثة الموافقة والمخالفة والترتيب مما أقدمت عليه
وأوردت المحجج الكافية لكل فئة من فئاته في كتابي « كفيل البيان والشعر » وإنما يسمح
لي بإيراد الشيء اليسير من الأمثلة . والليبي يمكنه بالاستغناء أن يقبس على ما ذكر ما لم يذكر
ولعله من الكافي أو القريب من حد الكافية أن نورد لكل ركن من الأركان الثلاثة
التي رجع إليها معظم القوالب أربعة أمثلة لأربعة قوالب فقط

ولنبداً بالركن الأول وهو الموافقة موردين من الأوزان أو القوالب المنتظمة في سلك
التشبيه والكتابة ومراعاة النظر والتورية

التشبيه ركن عظيم من أركان فن البيان وحقيقته إلهام أمر بأمر آخر لوجود علاقة
بينهما نحو قولك : « كلمة الحق سيف ملول على أهل البطل » مثبهاً كلمة الحق بسيف ملول
لعلاقة بينهما نسبياً وجه الشبه . وهذه العلاقة في العبارة هي التهديد والايهام . فكأن
السيف يهدد ويؤلم الملول عليه تهديداً وكلمة الحق وتؤلم توجعاً إليه أهل من البطل . والتشبيه على
اختلاف إفصاحه مبني على شيء من الموافقة بين أمرين لوضوح أمور كاتفاق السيف وكلمة
الحق في التهديد والايهام في المثال السابق . وما يقال في التشبيه من هذا القبيل يقال في
الاستعارة وهي أيضاً ركن آخر عظيم من أركان فن البيان ولا تحسب عند التحقيق إلا تشبيهاً
مختصراً أي محدودة منه التشبيه أو التشبيه به مع إيراد قرينة تبين المراد من العبارة نحو قولك :

« استضيئوا » « بالعلم » فأصل العبارة « العلم كالنور فاستضيئوا به »

والكتابة ركن مهم أيضاً من أركان فن البيان وهي لفظ أريد به لازم معناه أي الأمر
الذي يستلزمه معنى اللفظ الظاهر كقولك : « فلان عريض المنكبين » مقول للذراعين مكشتر

المضلات وأنت تكفي بذلك عن قوته لأن هذه الصفات تستلزم قوة الجسم في صاحبها .
وبديهي أنه لا بد من موافقة بين كل أمرين يستلزم أحدهما الآخر . فالكناية لا بد ناشئة
بجملتها عن الموافقة

ومراجعة النظر نوع من البديع يقوم بإيراد ألفاظ مشتركة في باب واحد أو موضوع
واحد . وهذا الاشتراك هو نوع من انواع الموافقة . ومن أمثلتها قول عنترة العبيسي
حصاني كان دلال الناياف نفاض غبارها وشرى وياها
وسبي كاف في الهيجا طيباً يداوي رأس من يشكو الصداعا
ولا يخفى أن الدلال وخوضه سوق الشراء والبيع أمور تندمج في طائفة واحدة .
والطبيب والمداواة والصداع وشكوى الممدوع تندمج في طائفة أخرى . فالموافقة ظاهرة
في كل من هذين البيتين

والتورية نوع من البديع جليل القدر وحقيقته أن يذكر لفظ له معنيان قريب وبعيد
فيراد البعيد منهما ويرادى أن يستر بالقريب . ومن التورية قول القائل

قالت اذا كنت ترجو وصلي وتختي فقوري
صف ورد خدي والآن أجور ناديت جورى

فالتورية واقعة في لفظة « جورى » التي معناها أقللي من الجور وهو المعنى القريب .
ومعناها أيضاً ورد جورى عما يمد أحسن أنواع الورد وهو المعنى البعيد المقصود . والتورية
ناشئة عن هذه الموافقة أي موافقة لفظ واحد لمعنيين

فرغنا من التمثيل عن الركن الاول وهو الموافقة ولندكر الآن الركن الثاني وهو المخالفة
مورددين أربعة انواع أو أربعة قوالب تنتظم في سلكها وهي الطباق وعكس الجمل وتأكيد
المدح بما يشبه القم والتفريق . فالطباق أو المطابقة أو التضاد هو ذكر ألفاظ متضادة في
معناها على سبيل التبرين كقول القائل :

لما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
وارجاع هذا القالب الى حظيرة المخالفة أوضح من أن يحتاج الى ذلك
ومثل ذلك في الوضوح عكس الجمل نحو قولهم : « كلام الملك ملوك الكلام »
وتأكيد المدح بما يشبه القم كقول صاحب هذا البحث وأتياً أحد التضاد :

لك الله من فاضل لم يكن بأوصافه الزهر شيء يذم

سوى أنه كان يضئ الجليس كل أبر وأخ وابن عم

فهذا الكلام بني على المخالفة ولو في ظاهر الأمر بإيراد حكم معين ثم إعتناء ناحية منه

وأما التفريق فمن أمثله قول القائل :

فهم القتي الأزدي في جمع ماله وهم القتي القيسي دفع انعامه
والخاتمة ظاهرة في الفرق بين رجلين أحدهما يجمع ماله ويذخر لنفسه وآخر يبذله في سبيل
نفع الناس وتفرج همومهم

وصلنا إلى الركن الثالث وهو حسن الترتيب فلنذكر من المحسنات المنطوية تحته الجمع
مع التفريق والطي والنشر والمزاوجة والاستتباع . أما الجمع مع التفريق فله قول أبي تمام :

ولما دعاي اليمين ولبت أذرعاً ولما دعاها ملاوعته ولبت
فلم أَرِ مثلي كان أوفى بعهدها ولا مثلاً لم ترع عهدي وذمتي

وأما الطي والنشر ويسمى أيضاً ألف والنشر فهو نوع بدعي يقدم بذكر أشياء متوالية
ثم ذكر ما يلائمها ومثاله :

هي حبيبتي أنيني رغبتي ولبي منهم اليم عليهم عليهم فيهم بهم
يريد أن همه منهم وحبيته بهم وأنينه عليهم ورغبته فيهم وولعه بهم . والمزاوجة أن
يرتب على امرئ في الشرط والجزاء ما رتب على أمر آخر قبله . ومثاله :

إذا ما دعا الداعي فنج في الحرى أصاغت إلى الواشي فليج بها المعجر
فإن حسن الترتيب ظاهر في هذه الأمثلة وهو معدها وموجتها ولا يخرج عن سلطانه
الاستتباع أيضاً فهو نوع بدعي يقوم بإيراد وصف شيء على صورة تستتبع وصف شيء آخر .
والترتيب متأني عن هذا الاستتباع . ومثاله قول الجني :

ألا أيها المال الذي قد أباده تسل فهذا نعمة بالكنايب

وقد داني الاختيار الطويل على أن الأدب أو المتأدب إذا خطر بباله وجعل نصب بصره
وبصيرته هذه الأركان الثلاثة أو المعادن الثلاثة لحسن الكلام وأبقى القول الموافقة
والخاتمة وحسن الترتيب أغنته عن الالتفات إلى معظم تلك القوالب والأنواع الكلامية التي
تراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ نوع وساعدته على ترتيب كلامه وتزيين مراميه بالأجود الأنجب من
تلك الأنواع ولو لم يفكر فيها بالذات ولم يعرف أسماءها وأمرافاتها ويحمد مغبة خطئه
لا سيما إذا كان المقام الذي يتعدى له مقام شعر منظوم أو ثناء يحاور الشعر في تبيين الخيال
واستتارة الصور . ولا بأس أن نسمي كلامه حينئذ كما اصطاح كثيرون شعراً مشهوراً في
محاضرة أو خطابة بل لا بد له أن يحتاج إلى التأنق وجمال الأداء في عدة مواضع من
مباحث العلم والسياسة والعمران والاحتياج . هذا الذي أراد وأعقده بشأن علم البيان العربي
أدرجته في علمك الزاهرة مبرجاً إليه أنظار حدام الأدب وأنصاره لنهلم يرون فيه أوفى
بعضه صواباً فيعملوا بمقتضاه . والله من وراء حسن القصد اللادقية — سورية